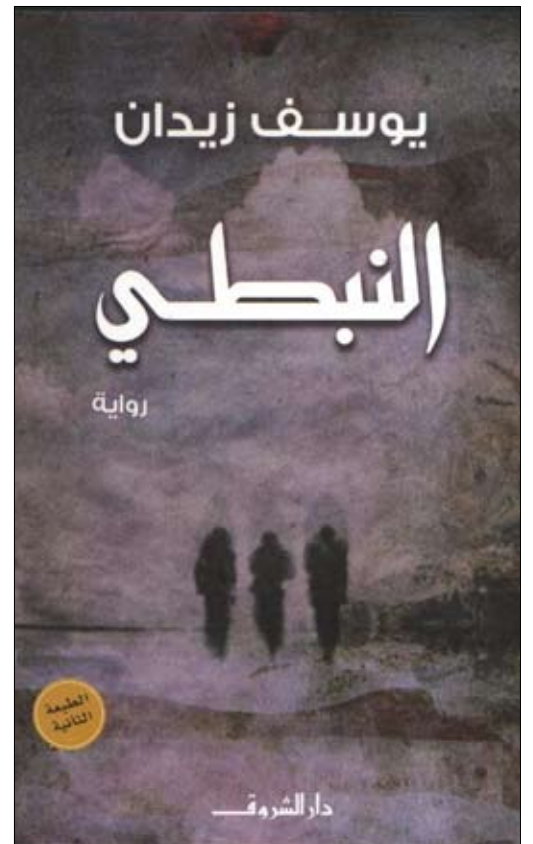


## كتب

## رواية

## يوسف زيدان في مهبط التاريخ



مصر الممزقة بين الروم والفرس قبل الفتح الإسلامي، هي مسرح أحداث «النبطي»، روايته الجديدة الصادرة عن «دار الشروق» في القاهرة. يواصل صاحب «عزازيل» هنا الحفر في التاريخ، فيبعث عالماً قديماً ببشره وحجارته وحكاياته وأسئلته

## محمد خير

«مع انتهاء الصيف الحارق، خرج زوجي وأخوه مالك إلى يثرب في غير تجارة. قال إنه ذاهب إلى هناك ليعلم إسلامه، فقلت له أعلنه هنا، فضحك وهو يقول: أنت لا تعرفين شيئاً، ولكني أحبك لأنك طيبة».

هذه المرة، يحكي يوسف زيدان روايته الجديدة على لسان مارية، المصرية القبطية اليتيمة. يتقدم صاحب «عزازيل» في الزمن منتهي عام. ينتقل من القرن الخامس الميلادي زمن روايته السابقة الحائزة جائزة «بوكر» العربية، وينتقي القرن السابع بعد الميلاد زمناً لروايته الجديدة «النبطي» (دار الشروق - القاهرة). في الرواية التي صدرت طبعها الثانية في يوم صدور الطبعة الأولى (التي لم يرها أحداً)، انتقال موفق للحظة زمنية مشحونة بالدراما.

الزمن زمن الرسالة المحمدية، ومصر تعيش لحظة الرعب بين انسحاب الفرس - بعد احتلال وجيز - وعودة الروم، والأقباط ممرقون بين العدوين الطامعين، واختلاف المذاهب المسيحية، وظلال العربي الذي أطلت طلائع جيوشه تستكشف أحوال مصر وخارجها. في مشهد تخيله زيدان، يلتقي عمرو بن العاص بمارية التي سكنت بعد زواجها جزيرة العرب. يسألها عن بيوت أهلها، وأحوالهم، وأسلحتهم، وزرعهم وحصادهم، قبل أن يامرأها وزوجها وأهلهم بالرجوع إلى مصر مع اليهود لنمهيد دخول العرب. يحنج بعضهم، لكن زوج مارية يسفر عن نظرة واقعية:

«ما نحن إلا جواسيس المسلمين وعبودهم في البلاد، وإذا قالوا لنا ارحلوا، فلا بد من الرحيل. فلماذا يبقى كبارهم في يثرب؟ - لا شأن لنا».

لكن حكاية مارية تبدأ قبل ذلك بسنوات، مع طفولة نمت في منطقة فقيرة تقع على حواف البلدة البيضاء التي يسكنها المالكيون (الروم الأرثوذكس). مارية التي تنتمي إلى المعاقبة (الأقباط) لم تدخل قط البلدة البيضاء حليفة الروم. تسمع حكايات شوارع البلدة الغنية النظيفة، وتحضر صلاة الأحد

في كنيسة حيهم الفقير، فيشرح كاهنهم شنوته مدى كفر أهل البلدة البيضاء. لكن الفتاة الصغيرة لا تهتم كثيراً بذلك، بل لا تعرف اسم حيها الصغير (كفور النملة) إلا بعد رحيلها عن مصر. لا تعرف حقيقة البرابي (الأثار القديمة) الملتصقة بالحج، ولا متى نشأ النهر. كلما سألت أمها عن أصل شيء، أجابتها الإجابة نفسها «من آلاف السنين». تخطى عمر مارية الثامنة بلا عريس أو خاطب. وعندما يأتيها الخاطب العربي المسيحي سلامة الذي سبأها إلى بلاده البعيدة، تجده أمها فرصة من السماء، وتستجيب البنت لأن «صاحباتي اللواتي كن يمرحن حولي، تزوجن، فخلا الكفر من ضحكات العذاري».

يأتي العريس وأهله بعمائمهم العربية، يدفعون «الأربون» للعروس (سيكون عقد الأملاك، والتتويج بالإكليل). بعد أسابيع، تتجهز العروس بأقمشة مصر القديمة، تحظى بالهدايا البسيطة. لكن الأخبار تتطاير عن رحيل موشك للفرس وعودة الروم فيسود الهلع، فيهرب أهل البلدة البيضاء حلفاء الروم بأموالهم ومتاعهم. وتبقى البلدة الفقيرة بلا نصير، يعتصم أهلها في كنسبتهم، ويجمع الآخرون ممتلكاتهم البسيطة ليفتدوا بها أرواحهم من الغزاة... حين يشتد الرعب، يهرع بعضهم ليختبئ في الغيطان القريبة. وفي ظلام الخوف، تصرخ امرأة بأنها رأت أم النور، لقد تجلت لها العذراء في ظلام الليل: «أهل الكفر داخلهم أمل عظيم، وتضاحك بعضهم متردداً بينما تجهم الآخرون، تسأل مارية جارهم أبو دميانة إن كانت العذراء قد ظهرت حقاً للمرأة الصارخة، يقول بأسى: هي امرأة مسكينة».

لكن العريس المغادر يعود ويحكي عن اتفاق يقضي بأن يخرج الفرس من مصر بلا تدمير، على أن يسلموها للروم. تستكمل مراسم

الزيجة وتودع مارية حياتها الأولى إلى جزيرة العرب. الرحلة طويلة طويلة، تستغرق شهراً ومئة صفحة من الكتاب. لكن مارية المتعبة تندهش وهي تتعرف للمرة الأولى إلى بلادها. الصحراء والبدو والبحر في الوقت نفسه، تدخل طقوس الحياة العربية، تسافر في آخر القافلة على بغلة وراء ناقة زوجها، تعرف أن عليها أن تغطي وجهها أمام الغرباء، تكتشف أن زوجها لا يلتزم بالصيام المسيحي لأنه «على سفر».

تنتمي عائلة الزوج إلى العرب الأنباط «أول من احترف استنباط الماء من الأرض». الزوج مسيحي،

## اختيار موفق للحظة زمنية مشحونة بالدراما

لكن أمه تصلي للآلات وذوي الشرى، وتعرض على اسم مارية (ما بال أهل مصر يسمون كل بناتهم مارية)، تسميها «ماوية». أما الأخ الأكبر فهو «الهودي»، لأنه أراد التحول إلى اليهودية ولم يستطع، لأن أمه ليست كذلك فضل في منزلة بين المنزلتين.

الاختان هما «المتلفنة» لكثرة تلفتها بحثاً عن أطفالها الكثيرين، أنجبت آخرهم بعد عام ونصف عام على موت زوجها. والأخرى هي ليلى هجرت زوجها الأول، وطلقت الثاني. لاحقاً، ستنشأ بين مارية وليلى علاقة حب «ملتبس»، في أيام سفر الزوج. أما الأخ الثالث، الغربي، المنعزل، البليغ، فهو «النبطي» صاحب دين جديد، توقع

أبوه أنه «سيكون ملكاً على الأنباط يعيد مجدهم القديم». وقالت أمه «بل سيكون نبياً ويرفع شأن العرب كلهم، لأنها أيام حملت به كانت ترى اللات كل ليلة في أحلامها».

يتحدث النبطي بكلامه الغريب، يحكي عن الربة الأولى اللات التي أنجبت ابنها إيل من غير زوج، ويخلق إيل الإنسان مزيجاً من ذكر وأنثى. في كل أنثى ذكر، وفي كل ذكر أنثى، تتعاقب الحيوانات وتتبادل الأرواح الأجساد الفانية وتتناسخ. يحكي النبطي ويعتكف كل حين في الجبال، ينتظر المزيد من الوحي. فيما بعد، عند اشتداد حروب الغزوات الإسلامية في الجزيرة، تدعوه قبيلة تغلب لأنها «تحتاج نبياً تحارب تحت رايته»، يعتذر بأن نبوته لم تكتمل، فيطردونه.

تكبر مارية من دون أن تنجب، فينعتونها بالمصرية العاق، وتدخل الإسلام بطلب من زوجها، لكنها تبقى تقسم بالعذراء. تموت أم الزوج، وترحل شقيقته ليلى، ويمتلئ المكان باليهود المطرودين من أنحاء الجزيرة.

تغدو مارية وحيدة في بيتها الخاوي، بينما الزوج وجد طريقه في العمل مع الدين الجديد. يزورها شقيقها بنيامين، فيبلغها بموت أمها، وبينتة دخول الدير. يتغير المكان والناس ولا يبقى سوى النبطي الحائر: «جاؤوا له برقاع مكتوب فيه قرآن المسلمين، فنظر إليه طويلاً، وجال بصره في السهول البعيدة، ثم قام وهو يقول، وكأنه يحدث نفسه: يأتي بهذا، ويسبل الدماء؟».

يتبدل التاريخ فتتبدل معه جغرافيا البشر. تبدأ رحلة العودة إلى مصر، ومارية تائهة في غبار القافلة، تكتشف أنها لم تحب إلا شخصاً واحداً، ولا شيء أصعب من اتخاذ القرار. مرة أخرى، يحرت يوسف زيدان أرضاً يعرفها جيداً، فيبعث زمناً قديماً ببشره وحجارته، وحكاياته وأسئلته.

## سرد

## أحمد زين: الضحايا بلا ذاكرة

## علاء اليوسفي

في «حرب تحت الجلد» (دار الآداب)، يخترق أحمد زين مسامات اليمن، ويغوص في بواطن مجتمع متوحد حول اليأس، وتعتدل داخله صراعات وحروب كامنة. وفي روايته الجديدة، يفكك صاحب «قهوة أميركية» (2007)، الهوية السياسية والوطنية الطاغية، إلى حد التماثل مع شخصية البطل قيس. لطالما عد هذا الأخير وحدة اليمن مقدسة وفوق النقد، من دون أن يفصل نظرتة السياسية، عن هويته الإنسانية الخاصة. يقرّر قيس الذي يعمل في إحدى صحف الحزب الحاكم، والمقرّب من رئيس التحرير، أن يكتب تحقيقاً لمجلة أجنبية، بمقاييس مهنية محترفة. رغبة تأتي من خارج ما درج على كتابته من تقارير، بتوجيه من رئيسه، هدفها امتداح إنجازات العهد. هكذا، يختار فئة اجتماعية مهمشة ليكتب عنها،

ويبدأ العمل بمنهجية الصحافة الأجنبية للوصول إلى الحقيقة. تفتح الرواية على مفارقات من النوع الذي نجده في أكثر من بلد عربي. سرعان ما يتعرف قيس إلى صحافيين من انتماءات وخيارات سياسية مغايرة لاقتناعاته، وينزلق من دون تخطيط أو إرادة إلى علاقة صداقة معهم، ومن خلالهم، يتكشف له الوجه الآخر للحقيقة. اكتشاف يهشم مرآته، ويجعله يتساءل عما يحدث له. أين تلك الأرض الصلبة التي كان يمشي واثق الخطى فوقها؟ لماذا تتصدع بمجرد أن تلمسها قدماه؟ في السابق، كان يراهم انتهازيين مصلين، أما الآن فلم يعد يحتاج إلى دليل على القمع الذي يتعرضون له، بعدما رأى آثار الضرب على وجه عليا. لم يعد يحتاج إلى دليل على التضليل الذي تقوم به صحف السلطة، بعدما أتى طلال بصور من الجنوب لم يكن يتصور وجودها

وحقيقة، وعندما أغلقت الجريدة التي نشرتها وحوكم صاحبها الذي لم يكن إلا صديقه شاهر. تنساق الرواية ضمن خطوط درامية متعددة. في إطار بحثه عن مراجع لإعداد تحقيقه الصحافي، يقع بطل الرواية قيس على رواية تتحدث عن تلك الفئة المهمشة، وفيلم يصور حياتها. في موازاة الخط السرد الأساسي، يقودنا صاحب «أسلاك تصطب» إلى رواية داخل الرواية، وإلى فيلم تسجيلي داخل الرواية. هكذا، يفتح نافذة على مشهد اجتماعي ينضح بإشكاليات لا يتسع لها تحقيق صحافي. من خلال أبطال الرواية الصحافيين، والمقاتلين القدامى مع الوحدة وضدّها، وضحايا الحروب السابقة والمستمرة، يزجّ صاحب «تصحيح وضع» (2004) بحقائق تخالف قناعات قيس، وتضطدم بها، معلناً أن «الضحايا دائماً بلا ذاكرة، سرعان



ما ينسون بطش الجلاذ ليهتفوا ثانية باسمه».

التفاصيل التي اختار قيس ألا يهملها في سعيه إلى إنجاز التحقيق، تظهر في مكان آخر أكثر وعورة. يسمع من المحارب القديم «أن شعرة دقيقة تفصل بين الدفاع الحقيقي عن الوحدة، والسكوت عن فساد حكومة تداري نفسها وراء رغبة الناس العاطفية في صمود الوحدة، وأنه في ظرف كهذا من الصعب رؤية هذه الشعرة».

وكن يخرج من الظلمة إلى النور فجأة، يعاني قيس في اعتياد الأفكار والوقائع الجديدة التي بدأ يتلمسها. إدراك مشوش، وصور مضطربة، لا تشبه الاقتناعات والصور المثالية التي طالما آمن بها. هل يكمل التحقيق أم يتوقف؟ تضيء الرواية على الواقع اليمني المتخبط في حروب وآلام لا تنتهي، وعلى واقع إعلامي سمته المصالح الخاصة والتضليل.

## شعرة بين الدفاع عن الوحدة والسكوت عن الفساد